تمثّلات الأنا والآخر وإشكالية الانتماء في رواية "أنا وحاييم" للحبيب السائح.

حاتم زيدان ـ طالب دكتوراه
أد. العيد جلولي ـ أستاذ التعليم العالي
مخبر النقد ومصطلحاته
جامعة قاصدي مرباح ـ ورقلة

ملخص:

تهدف هذه الدراسة المعنونة بـ: **تمثّلات الأنا والآخر وإشكالية الانتماء في رواية "أنا وحاييم" للحبيب السائح**، إلى محاولة استكناه صور الأنا والآخر من خلال هذه الرواية وكيف تمثلت حيث حاولنا التركيز على موقفين مهمين حول علاقة الأنا والآخر داخل هذا المتن الروائي وهما موقف القبول والتعايش بالتركيز على إيجابية العلاقة بينهما، وموقف الرفض والتنافر (علاقة سلبية).

الكلمات المفاتيح: الأنا/ الآخر/الانتماء/الحبيب السائح.

Abstract :

This study, entitled **"Representations of the ego and the other, and the problem of belonging in the novel" Ana wa Haim"**, the author **Habib Sayeh** aims to attract the images of the ego and the other through this novel and how to represent it, as we tried to focus on two important positions on the relationship of the ego and the other within this narrative Acceptance and co-existence and the position of rejection and dissonance.

أولا/ علاقة الذات (الشرق) والآخر (الغرب):

تطرح العلاقة بين الشرق والغرب الكثير من التساؤلات لعل أبرزها بداية اللقاء بينهما ومدى تعايشهما معا، فهل العلاقة بينهما هي علاقة تعايش وقبول حتى وإن جمعتهما المصالح، أم أنها علاقة صدام وتوجس فكل طرف يحاول أن يحتفظ بما يعرفه عن الطرف الآخر، لذلك فإننا نعتقد أن النظرة بينهما تختلف فرؤية الغرب للشرق ليست هي نفسها رؤية الشرق للغرب، وقد ذهب الكاتب نجم عبد الله كاظم إلى الحديث عن

طبيعة العلاقة بينهما بقوله: «إن العلاقة بين الشرق والغرب هو قضية، وقبل ذلك واقعة أوسع من أن تكون فنية أو أدبية فقط، وهو لقاء تحقق عبر العصور مرات عديدة، بل لعلنا يمكن أن نقول إنه يقترب من أن يكون أمرا طبيعيا ودائما»[1]، ولعل أن اللقاء بين الشرق والغرب حسب رأي الكاتب نفسه «قد تحقق مرتين رئيستين في التاريخ؛ الأولى حين وصلت جحافل الإمبراطورية العربية الإسلامية بإنسانها وفكرها وحضارتها إلى أوروبا، ابتداء من القرن الثامن الميلادي وما استتبع ذلك من تأثير ضخم وشامل للحضارة العربية الإسلامية في أوروبا. أما المرة الثانية، فكانت حين وصل الغربي إلينا غازيا ومبشرا دينيا ومستعمرا وعالما ومعلما، خصوصا عبر بوابتي مصر وبلاد الشام. ولا ننسى بالطبع اللقاء عبر الحملات الصليبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر»[2]، فاللقاء بين الشرق والغرب كان عبر لقاءين مهمين الأول كان بفعل العرب في حد ذاتهم وانتقالهم بحضارتهم وفكرهم وثقافتهم إلى الغرب واللقاء الثاني حدث حينما جاء الغرب مبشرا دينيا ومستعمرا عن طريق مصر وبلاد الشام، وقد تطرق جبرا إبراهيم جبرا إلى قضية الشرق والغرب حينما قال: «العرب والغرب: قصة طويلة ومعقدة، وفيها، مثل أي قصة معقدة جيدة وممتعة، الكثير من الصراع، والكثير من الحب والكراهية. إن العلاقة قديمة قدم الإسلام: طالما وترفقت فيها الجاذبية والنفور بينهما إلى مستوى الابتهاج أحيانا ومستوى التراجيديا أحيانا أخرى»[3]، فالعلاقة بين الحضارتين الغربية والشرقية قديمة قدم الحضارة الإسلامية، والشرق يمثل بالنسبة للغرب (المشرق/الإسلام/العرب)، واعتقد أن نظرة الغرب للشرق لم تتغير منذ اللقاء الأول بينهما، والإنسان الغربي دائما ما ينظر للشرق نظرة دونية تحط من قيمة الإنسان العربي، ولعل مشكل الحضارة الغربية مع الشرق يمكن تلخيصه في كلمة إسلام فقد «ربط الغرب اهتمامه بالعربية، في الماضي، ربطا وثيقا بما عرف عندهم باسم (المشكلة الإسلامية) فالخطر الإسلامي كان أكبر ما يؤرق أوروبا»[4] لأن الحضارة الإسلامية بإنسانها وفكرها يمكن أن تشكل خطرا على الآخر (الغرب)، وما هو «معروف أن التصور الغربي عن العرب والإسلام والشرق، بل عن الآخر بشكل عام، هو نتاج تاريخ طويل خاص بالغرب ذاته من جهة أولى، وبما عرف بالمركزية الأوروبية، وربما أحيانا الأورو-أمريكية، وفي تعامل الغرب (المركز) مع الآخرين (الأطراف) بتعال وتهميش من جهة ثانية، وبالعلاقة بين الغرب والشرق من جهة ثالثة، وبالمعتقدات والخلفيات والمرجعيات الفكرية والدينية من جهة رابعة»[5] وقد ذكر الكاتب عبد الوهاب المسيري هذه الرؤية في كتابه فقه التحيز بقوله: «الرؤية المعرفية الإمبريالية»[6]، وبذلك فإن رؤية الشرق للغرب أو

بالأحرى نظرته تجاه الشرق ليست وليدة الزمن الحالي بل نظرة قديمة حاول الغرب تكوينها في مخيلته عن الشرق.

ثانيا/ لمحة موجزة عن علاقة الأنا والآخر في الرواية الجزائرية:

تعددت صورة الآخر في الكتابات الروائية الجزائرية، فقد نجد مثلا صورة الآخر الاستعماري أو الآخر العنصري أو الآخر الإيديولوجي ...إلخ، وقد تميزت العلاقة بين الذات والآخر في الأعمال الروائية الجزائرية سواء المكتوبة بالفرنسية أو العربية في كثير من الأحايين بالتنافر والرفض والتوتر تجاه الآخر ولعل الأوضاع التي عاشتها الجزائر في الفترات السابقة انعكست بصورة مباشرة على كتابات الروائيين الجزائريين، سواء الذين كتبوا باللغة الفرنسية أو العربية، فرأينا على سبيل المثال في كتابات الروائي "رشيد بوجدرة" حوارا بين الأنا والآخر، وفي رواية كتاب الأمير لـ: واسيني الأعرج يلحظ القارئ ذلك الانفتاح بين الأنا والآخر الأجنبي (الفرنسي)، فلا يجد ذلك التصادم أو التنافر بين الأنا والآخر وكأن الروائي دعا إلى نوع من التسامح والقبول بينهما لمحاولة إعطاء صورة إيجابية عن العلاقة بين الأنا (الجزائري) والآخر (الفرنسي)، وهناك الكثير من الأعمال الروائية التي تناولت قضيت الآخر لكن الصور متغيرة من روائي إلى آخر؛ فهناك من حاول رسم صورة الآخر العنصري وكيف فرض تلك العنصرية على الأنا بقمعها وتهميشها وإقصائها، وهناك من حاول أن يعطي صورة الآخر الاستعماري الذي حاول فرض السياسة الاستعمارية على الأنا الرافضة له، ورواية "أنا وحاييم" للحبيب السائح التي نحن بصدد دراستها تحاول أن ترسم لنا عدة صور للأنا والآخر معا، فهناك صورتان للأنا وصورتان للآخر، فالأولى الأنا الفردية التي تمثلت في صورة البطل/أرسلان في مقابل الآخر اليهودي وصورة الأنا الجماعية (النحن/الأهالي) في مقابل اليهود من الأهالي أيضا وهذا في موقف التعايش والتسامح والقبول بالآخر، أما عن موقف الرفض والتنافر نجد صورة الأنا الجماعية (النحن) التي تمثلت في صورة الأهالي (المناضلين والمثقفين) في مقابل الآخر الاستعماري/العنصري، وبذلك فالروائي الحبيب السائح في العمل الروائي استطاع أن يتناول عدة قضايا منها قضية الأنا والآخر وكذلك قضية الهوية وقضية الاغتراب.

ثالثا/ تمثلات الأنا والآخر في رواية "أنا وحاييم" للحبيب السائح:

حاولنا التطرق في هذا الجانب الإجرائي إلى موقفين مهمين في علاقة الأنا والآخر هما موقف القبول والتعايش حيث ركزنا فيه على إيجابية العلاقة بين الأنا والآخر، وفي الموقف الثاني الذي أسميناه موقف الرفض والتنافر (علاقة سلبية) بين الأنا والآخر داخل هذا المتن الروائي.

1- الذات والآخر موقف القبول/التعايش (علاقة إيجابية):

في رواية "أنا وحاييم" للحبيب السائح لسنا أمام شكل واحد لصورة الذات، بل نجد أنفسنا في مواجهة مجموعة متعددة من الأشكال والملامح المتغيرة لصورة الذات والآخر، ففي هذا الشق الإجرائي الأول موقف القبول والتعايش مع الآخر تمثلت لنا الأنا (الذات) في صورتين واحدة فردية والأخرى جماعية؛ الصورة الأولى هي صورة أنا (ذات/البطل أرسلان) والصورة الثانية الذات الجماعية الـ(نحن) الأهالي.

1-1 صورة الأنا (الذات) والآخر اليهودي الاختلاف الديني والصراع المكاني:

يختلف موقف العلاقة بين الأنا والآخر في رواية " أنا وحاييم " للحبيب السائح إلى عدة صور وأشكال، ففي هذا الشق الأول سنحاول التطرق إلى صورة الأنا الفردية المتمثلة في (ذات البطل/أرسلان) والآخر (اليهودي/حاييم)، ففي هذا العنصر بالذات أشرنا إلى موقف التعايش والقبول بين الأنا والآخر، فالبرغم من التنافر المعروف والموجود بين العرب واليهود ظاهريا، إلا أن الحبيب السائح ضرب لنا في هذا العمل الروائي مثالا في التآخي والتآزر بين البطل العربي (الجزائري) وصديقه حاييم (اليهودي).

أ- صورة الأنا الفردية (ذات البطل/أرسلان) والآخر اليهودي (حاييم):

تمثلت الأنا الفردية هنا في صورة (البطل/أرسلان) بن القايد حنيفي، حيث نَشأَت هذه الأنا/الفردية (ذات البطل) مع الآخر صديقه (حاييم بنميمون/ اليهودي) الذي لازمه كالظل من طفولته التي بدأت في سعيدة إلى وفاة هذا الأخير، كان رفيقه في الدراسة من الطور الأول، فالثاني الإكمالي، فالثالث الثانوي وصولا إلى الجامعة، يقول أرسلان عائدا بمخيلته إلى الزمن الماضي «وعلى بعد أمتار- كانت ثلاثين عدّاً بخطواتي الصغيرة قبل سنين- وقفت، على الرصيف المقابل، وقفة لم أقفها من قبل، محزون الخاطر أمام دار حاييم بنميمون (...) تقدمتُ. وعند الباب الصامت، ذاك الذي رأيت حاييم يخرج منه بمحفظته قبل ثمانية وعشرين عاما كي نتوجه معا لأول مرة إلى مدرسة جول فيّري»(7).

فالبطل أرسلان يسترجع عبر هذا المكان طفولته التي جمعته مع صديقه اليهودي حاييم، فعلى الرغم من اختلاف ديانتهما، إلا أن ما جمعهما هو هذا الوطن (الجزائر) الذي احتواهما معا من دون أن يُخضعهما لأي سلطة دينية تفرق بينهما، فدين (البطل/أرسلان) هو الدين الإسلامي ودين حاييم اليهودية، فالبرغم من هذا الاختلاف الديني إلا أنهما استطاعا أن يتعايشا جنبا إلى جنب.

وقد درس البطل وصديقه في الطور الثانوي في مدينة معسكر لأن التدريس لم يكن متاحا في سعيدة، وصولا إلى الجامعة في العاصمة وهناك تشكل لديهما الوعي الثوري

وضرورة العمل المسلح، تخرج منها أرسلان أستاذاً وحاييم صيدلانيا فكانا رمزا للشباب الجزائري المثقف، وكانا متفوقين من الصغر على أبناء الأوربيين، وعلى الرغم من الظروف القاسية التي عاش فيها كل منهما إلا أن هذا لم يثبط عزيمتهما في الدفاع عن هذه الأرض أو الوطن الذي حملهما وجمعهما معا طيلة سنوات.

في الوقت الذي كان أرسلان طالبا جامعيا كان تفكيره الأول هو الحرية؛ حرية هذا الوطن من الحكم الاستعماري المستبد، وقد كان كثيرا ما يتشاجر في الجامعة كلاميا مع الطلاب من أبناء الأوربيين المختلفين عنه في كل شيء دفاعا وغيرة عن وطنه، حيث يقول البطل أرسلان: «وبتوالي الأيام، ازددت شعورا بأني أضحيت محل عناية خاصة من زملاء لي صاروا لا يتحرجون في مواجهتي بأسئلتهم، خلال اللقاءات في الكافتيريا وفي الساحة أحيانا وفي المكتبة أيضا، عن رأيي في سياسة الإدماج وفي الانتخابات؛ عن وجهة نظري في الشائعات التي تسري حول إنشاء تنظيم سري يُعد لعمل مسلح (...) حتى سيلين شوفالييه نفسُها، وهي التي غالبا ما شاطرتني رؤيتي إلى قضية التحرر، لأنها من الشبيبة الشيوعية، سألتني بريبة إن كنت أتفق مع الداعين مع الأهالي إلى إشعال فتيل حرب تحرير كالتي خاضها الفيتناميون ضد الوجود الفرنسي في بلادهم»(8).

كانت هذه المواجهات الكلامية التي يحضرها أرسلان وحاييم مع الطلبة من الجنس الآخر أبناء الأوربيين، حيث عقدوا لقاءات في المقاهي والمكتبات لمناقشة الوضع الراهن في البلد، وكانوا كذلك متتبعين للأحداث عبر الصحف والمذياع، ولم يكن الاختلاف مع كل من حمل الجنسية الفرنسية، بل هناك من كان مدعما لمجادلات البطل/أرسلان، يقول هذا الأخير «وكانت سيلين تدعمني في مجادلاتي خارج المدرج مع الأقدام السوداء من أولئك المسيحيين. ففي إحداهما، وقد جرت في الكافتيريا حول مزايا اكتساب الهوية والمواطنة الجديدتين التي اعتبرتُهما مجرد سراب لتكريس إرادة أقلية على مصير أغلبية، كان آلبرتو باولي، أحد أولئك، وهو ناشط من أجل الإدماج بشروط، دعاني إلى الالتحاق بحضن أمه -غير البيولوجية طبعا- لأني في رأيي أمثل نموذجا مثاليا لنخبة الأهالي ثقافيا ولغويا واجتماعيا. فردت عليه سيلين، لأنها من أصول فرنسية، بأن أمه هو ليست في الأصل فرنسية»(9).

فقد حمل كل من البطل/أرسلان وحاييم اليهودي بنميمون نفس الأفكار والتوجهات في أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، فاختار أرسلان التوجه إلى الجبل وتلبية نداء الجبهة وبقي حاييم في صيدليته يساعد بما أمكن، فكان يرسل كل المتطلبات من الأدوية، ومن هنا نلاحظ ذلك التعايش بين شخصيتين مختلفتين دينيا، لكنهما يدافعان عن أرض و

وطن ومكان واحد جمعهما معا، يقول أرسلان «حتى إذا عدت إلى غرفت النوم وجدت حاييم دخل سريره وبين يديه كتاب التوراة الذي غالبا ما يقرأ منه حين يكون في حالات من الحزن والتوتر (...) دخلت الحمام فتوضأت وعدت فأنزلت من دولاب الملابس مصحفي؛ (...) ولا وقع يوما أن حاول أحدنا رد الآخر عن دينه؛ واجدين ذلك من سلوك عائلتينا ومن غيرهما من المتجاورين من المسلمين واليهود في الدرب خاصة»[10].

وقد كان الاحترام سائدا في العلاقة التي تربط بين الأنا (ذات البطل/أرسلان) والآخر (حاييم) يحترم الأنا، فلم يكن كل منهما يحمل تلك الأحقاد الدينية والبغائض العقائدية، هذا مسلم وذاك يهودي، حيث لمسنا ذلك التراضي بينهما ولم يقصِ أحدهما الآخر بأي شكل من الأشكال، ولم يحاول أي منهما أن يمس دين الآخر، لأن تفكيرهما ونواياهما كانت أكبر من هذا الاختلاف أو ذاك الصراع حول هوية كل منهما، بل كان همهما هو البقاء تحت سماء واحدة و وطن واحد يجمعهما، وقد استعمل الاستعمار بعض الألفاظ العنصرية كلفظة الأنديجان وهي لفظةً وضيعة دنيئة أطلقها الاستعمار على السكان الأصليين للجزائر من يهود ومسلمين. وما كان يجمع الأنا الأولى ذات البطل/أرسلان والآخر اليهودي حاييم هو المكان مثلما جمع اليهود والمسلمين، فلم يحسَ حاييم يوما أنه فرنسي الجنسية ولا يهوديا في انتمائه، وبالتالي فأنا/البطل والآخر اليهودي وبالرغم من اختلافهما دينيا إلا أنهما يجتمعان مكانيا، وينتميان إلى مكان واحد وهو هذا الوطن (الجزائر)، يقول أرسلان «أعرف حاييم جيدا. فلا تشكُّوا في خياراته حين يتعلق الأمر بوطنيته»[11]، لذلك وجب عليهما الدفاع عن هذا الوطن ضد الآخر (الاستعمار).

وإن أهم صورة يمكن أن تُبرز لنا ذلك التعايش بين الشخصية البطلة/ أرسلان (المسلم) والآخر حاييم بنميمون (اليهودي) المتجنس بالجنسية الفرنسية هي دفع الأول لتكاليف الثاني لمّا كانا يقيمان معا يقول حاييم: «أرسلان صديقي. أفتقدك في خضم ظروف هذه الحرب. أتذكر أفضالك علي. إنها كثيرة، كبيرة وسخية جدا؛ ليس لكونك ذا سَعة ومن عائلة ميسورة فحسب، بل أيضا لنفسك النبيلة وسماحة خلقك وهذا الوفاء الوطيد المستمر والخالص. إني لا أنسى أعوام جامعة الجزائر معك. كنتَ، خلال أربع سنين، لا تكتفي بأن تدفع إيجار الأستوديو، وتوفير مصروف الطعام والسينما والمسرح في الغالب؛ كنت أيضا تشتري، لا كتبك أنت فحسب، بل بعض قواميس الصيدلة (...) إني أحبيك بقلبي ووجداني.»[12]، فهذه صورة إيجابية عن العلاقة الأخوية بين صديقين مختلفان في الديانة والجنسية لكن طموحهما واحد وهو استقلال هذا الوطن الذي ينتميان إليه، حتى إذا مات حاييم بعد سنوات من الصداقة احترم أرسلان ديانته ومعتقداته يقول: «لم أتردد لحظة،

لأن ذلك كان نابعا من قناعتي، لما استسمحت مسؤول المكتب في أن أعرف منه إن كان حاييم قد رحل مطمئنا على أن جسده سيعامل كما تقتضيه ديانته، لأنه كان مؤمنا. اطمئن يا أستاذ! فقد أحضرنا من طائفته من وقف عليه وغسّله وكفنه وقرأ عليه.»(13).

وهنا يظهر احترام الأنا أو ذات (البطل/أرسلان) للآخر حاييم (اليهودي)، وإن أبرز احترام يمكن أن تقدمه الذات للآخر أو الآخر للذات هو أن تحترم ديانته ومعتقداته، بعيدا أن أي إقصاء أو تعصب ديني.

ب- صورة الأنا الجماعية الـ(نحن) تمثلت في:

1-1- صورة السكان الـ(نحن) الأهالي والآخر اليهود:

ظهرت صورة الأنا الجماعية (نحن) الأهالي و(الآخر) اليهود جلية في هذا العمل الروائي، حيث لاحظنا ذلك القبول والتعايش بين السكان الأصليين من الأهالي واليهود، فلم يكن بينهما أي تنافر أو عنصرية، على غرار صورة السكان الأصليين وأبناء الأوربيين التي أظهرت الرفض والعداوة والصراع بينهما، وتجلى ذلك الصدام في عدم قبول أحدهما للآخر ورفضه رفضا مطلقا.

ففي هذه الرواية يركز الحبيب السائح على قضية مهمة متعلقة بالهوية والانتماء، وهي قضية السكان الأصليين في الجزائر في فترات سابقة من تاريخ هذا الوطن، بالضبط في فترة الاستعمار الفرنسي، حيث كان هذا الوطن يحمل العديد من الهويات منها ما كان متصارعا كالأهالي وأبناء الأوربيين والأقدام السوداء ومنها ما كان متعايشا كالأهالي الجزائريين واليهود على الرغم من الاختلاف الديني والعقائدي الذي يفصلهما، يقول البطل في هذا المشهد السردي «فيما مرت بذهني صور لبيع شاهدتها يوم دعتني حسيبة لجولة في حي القصبة الذي يشبه متاهة، ما كنت لأخرج منها بمفردي، لتداخل كل شيء فيه وتماثله وتجاوره بين سكانه من الأهالي مسلمين ويهودا بأبواب مساكنهم الواطئة ومحلاتهم التجارية وزنقاتهم الضيقة الحلزونية الصاعدة دائما النازلة دائما ومصلياتهم وبِيعهم جنبا إلى جنب ولهجتهم العربية الصافية وملابسهم التقليدية وصخبهم المؤنس وملامحهم المنبسطة وروائح مطاعمهم ومطابخهم العبقة ومقاهيهم الضاجة»(14).

ففي هذا المقطع السردي يصور لنا الروائي الحبيب السائح مشهدا إنسانيا خاليا من العصبية والتشدد تجاه الآخر، حيث وصف حياة الأخوة والتسامح الديني بين الأهالي واليهود في حي القصبة بالجزائر، وكيف عاشوا جنبا إلى جنب في حي واحد يتقاسمون جدرانه وتتقابل بيتهم ومحلاتهم ويشتركون في اللغة والملبس وربما التقاليد والأعراف،

فالمار من هناك لم يكن ليحس بذلك الاختلاف الديني بين الأهالي واليهود، ولم يكن ليفرق بينهم وبين الذين سكنوا هذه الأرض في زمن ما.

وليس التعايش مع (الآخر) يفرض على (الأنا) قبوله بصورة كبيرة، وليس رفض الآخر يعني عدم التعايش معه والاحتكاك معه بأي صورة أو بأي شكل من الأشكال، وهذا ما أردنا أن نشير إليه بتوظيف هذه المشاهد، وإظهار ذلك التعايش والاحتكاك بين النصارى والجزائريين واليهود والفرنسيين.

2- الذات والآخر موقف الرفض/تنافر (علاقة سلبية):

حاولنا في هذا الموقف الذي عنوناه بموقف الرفض/التنافر أن نركز على العلاقة السلبية بين الأنا الجماعية الـ(نحن) المناضلون/المثقفون/الأهالي و(الآخر) الاستعمار العنصري والقمعي، حيث ركزنا على طبيعة العلاقة السلبية التي اتسمت بالتنافر بين الذات الجزائرية والآخر الاستعمار الفرنسي الذي يحاول قمع هذه الذات وممارسة العنف والتسلط عليها، وكذلك فرض هيمنته على المكان الذي يمثل الهوية بالنسبة للذات لذلك كانت هذه الذات من البداية رافضة لكل أشكال هذا الاستعمار المختلف عنها جنسيا ودينيا ويحاول سلبها هذه الأرض التي أكل ثمارها واغتصب ثرواتها وتتفنن في قتل إنسانها.

1-1 صورة الأنا والآخر (الاستعمار) الاختلاف الديني والغياب المكاني:

أ- صورة الذات الجماعية الـ(نحن) والآخر:

سنحاول في هذا الشق الإجرائي التطرق إلى عدة أشكال لصور الذات الجماعية (المناضلين/المثقفين/الأهالي) والآخر الاستعمار (القمعي/العنصري)، وأولى هذه الصور هي:

1-1- صورة الذات الجماعية الـ(نحن) المناضلين والآخر الاستعمار الفرنسي:

الصورة الأولى للذات الجماعية (نحن) هي صورة المناضلين الذين وقفوا في وجه الآخر (الاستعمار الفرنسي)، حيث استطاع الروائي الحبيب السائح أن يضع القارئ أمام مشاهدة حية لهؤلاء المناضلين وطريقة تعاملهم مع الاستعمار يقول السارد «وفي الأثناء انشغلت بتصفح جريدة المدينة "صدى سعيدة" (...) حتى إذا عاد حاييم بصينية القهوة وجلس وأسمعته. "وقد تكون المجموعة التي تم القضاء على عناصرها هي الأخيرة في منطقة تامَسْنة" (...) كنت قرأت خبرا عن تنفيذ حكم إعدام ثان في حق شاب من المدينة ألقى قنبلة في ملعب الكرة الحديدية»[15].

يخاطر هذا الفدائي بحياته من أجل الوطن الذي ينتمي إليه، ويقف في وجه هذا (الآخر المُستَعْمِر) الذي سلبه أرضه، وأقام عليه مجموعة من القوانين والشروط التعسفية ليقتلع منه إرادته وحريته، وحاول استبداده بكل الأشكال والوسائل، وقد عمل الروائي

الحبيب السائح أن يجسد للقارئ صورة مقاومة البطل/أرسلان ومشاركته في حمل السلاح يقول: «لما وضع ذلك على النُضد فأحدث وقعا خشنا، أن يكون مسدسا»[16]، حاولت هذه الأنا (ذات/البطل) مع أصدقائه وغيرهم من المناضلين الوقوف في وجه هذا الآخر، حيث كانوا يقومون بعمليات تستهدف مراكب ومنشآت العدو، وبالتخطيط في سرية تامة لتفجيرات في أماكن متفرقة، يقول: البطل «فعشية تنفيذ العملية التي اقتضت تنفيذ المقطع المستقيم الذي يبلغ عليه القطار سرعته القصوى وتجنيد ثلاثة أشخاص من الخلية وتزويدهم بمطارق ومفاتيح براغي كبيرة اشتريتها بدعوى حاجتي إليها في المزرعة، كنت اقترحت على سي فراجي أن أرافقه فلم يوافق، بحجة أن هناك ما يكفي من المتطوعين»[17]، ويعد البطل/أرسلان أحد الأفراد المنتمين لخلية سي فراجي، والتي تظم في كنفها مجموعة من الشباب والرجال وحتى النساء الفدائيين والمناضلين الذين قاموا بتضحيات كبيرة في سبيل هذا الوطن للحفاظ عليه وطرد الآخر (المستعمر).

يشير الروائي أيضا إلى دور الذات الأنثوية في مواجهة الآخر المستعمر، يقول «بعد أيام، عاد سي فراجي إلى البيت واستأذن من الأم أن يختلي بزليخة في غرفتها. وهناك طلب منها أن تنفذ المهمة. ثم سلمها صورة نقشت ملامحها في ذاكرتها وأعادتها له. فذكر لها اسم آلان بروسييه. وعين لها مساره وعنوان بيته ومكان الفعل وتوقيته. فتمثلت ذلك كله. ثم حدد لها مخططا لانسحابها بعد التنفيذ.»[18]، قامت هذه الذات الأنثى/زليخة ما طلب منها بدون تردد وقتلت الضابط الفرنسي آلان بروسييه، لتمثل بذلك رمزا للذات الأنثوية والنساء الجزائريات اللاتي خضن الحرب ووقفن في وجه هذا الآخر (المستعمر) وحملن لواء الجهاد ضده.

1-2- صورة الذات الجماعية الـ(نحن) المثقفين والآخر العنصري:

الصورة الثالثة من الذات الجماعية (النحن) هي صورة المثقفين من أصدقاء البطل/أرسلان من الذين درسوا معه في الأطوار الثلاثة خاصة احتكاكهم أيام الجامعة، يقول: البطل/ أرسلان «فقد امتد الأمر إلى الجامعة التي ما مر علي يوم آخر فيها إلا وجدت أن طلبة آخرين، وحتى الأساتذة أنفسهم، ينحازون للاتجاه العسكري والقبضة الأمنية. كان ذلك يسفر في الأحاديث وفي المحاضرات المنظمة، على هامش الدروس، التي أحضرها وفي مناقشاتها.»[19]، فيظهر من مناقشات هؤلاء الطلبة أنهم كانوا منقسمين، طرف أول أيّدَ العمل المسلح، وطرف ثان رفض ذلك، لذلك كانت هناك انقسامات حتى بين الطلبة الجزائريين أنفسهم، ومن هنا يظهر ذلك التشتت الداخلي لهذه الذات الجماعية الـ(نحن/المثقفين)، وبالرغم من الدور الفعال الذي كانت تقوم به، إلا أن ذلك الانقسام

داخلها أدى إلى ظهور ذات ثانية يمكن أن نسميها الذات المضادة (التي ترفض العمل المسلح)، لأن نوايا وطموح الذات الأولى غير نوايا الذات الثانية.

وقد كان التلاميذ أيضا من أبناء الأهالي أنفسهم يتعرضون إلى استفزازات كبيرة وإلى عنصرية واضحة من طرف نظرائهم من أبناء الأوربيين الذين يمثلون الفئة المثقفة، وهذا لم يمنع -هذه الفئة- من أن تكون أكثر عدائية تجاه الأنا، يقول السارد في هذا الشاهد: «ما الذي جعل سنتي الثانية، بما تطلبته مني ومن حاييم من حفر إلى أعمق قدراتنا العصبية أمام الأساتذة ومن عناد لا يفل تجاه التلاميذ من قسمنا، أن تكون اختبارا لي على رفع تحدي الرد على استفزازات تلاميذ آخرين عنصريين، من الطور الثانوي نفسه تجاهي؛ وعلى تحرشات أولئك الشبان الجانحين الذين ينتظرون خروج التلاميذ لابتزازهم في أرجاء الثانوية؟ »[20]، فهذا العنصرية والاستفزازات كانت تقود إلى في كثير من الأحايين إلى مشاجرات عنيفة بين التلاميذ من أبناء الأهالي وأبناء الأوربيين، حيث نشأت تلك العداوة والكراهية بين الطرفين منذ الصغر، وهذا دليل قاطع على أن الذات المثقفة أيضا كانت ترفض الآخر بكل ملامحه وفي أي صورة كان، فلم تتقبل هذه الذات الجماعية الـ(نحن/المثقفين) هذا الآخر في أن يتقاسم معهم هذا الوطن الذي يمثل عندهم الانتماء، يقول البطل/أرسلان «ففي الحالين، مثلما تفكَّه علي حاييم، بدوتُ معاركا شرسا. فقد كنت طرحت أرضا زميلنا أنطوان لونورموند بنطحة عند الجدار الخلفي للثانوية، على رؤوس أشهاد من زملائنا، صباح يوم أحد، كما تواعدنا لأنه سبق أن وصفني، في الساحة، بابن الأنديجان خادم أسياده الفرنسيين فتحديته في مبارزة»[21]. حيث يقف هنا القارئ أمام براءة هؤلاء التلاميذ ويعتقد أن هذه البراءة لا يمكنها أن ترفض ذلك الآخر، لكنه أخفق في ذلك الاعتقاد، فكأن الأطفال الصغار في هذا الموضع قد أخذوا وتعلموا ذلك الرفض وتلك الكراهية وعدم تقبل الآخر من آبائهم، وبهذا يتجسد داخلهم ذلك الوعي وتنضج عندهم فكرة عدم قبول هذا الآخر الذي كان دائما ما يحاول أن يقلل من قيمة الأنا ويجعلها في مرتبة سفلى.

وإن أبرز صورة تمثلت لنا حول هذا الآخر الغربي في كراهيته اللامحدودة تجاه أي جنس أو ديانة مختلفة عنه، حيث لم يَكن هذا الآخر (المستعمر الفرنسي) يُكن كراهية للأهالي من الجزائريين فقط، بل تعدى ذلك إلى اليهود من الأهالي المنتمين إلى هذا الوطن، وهنا تكمن مرضيته وعدائيته اللامتناهية في حق الأنا، يقول أحد المتدخلين في اجتماع للطلبة الجزائريين بالنادي «إننا لا نعيش سوى وهم كوننا طلبة جامعيين. انظروا إلى ما يتمتع به نظراؤنا من الأقدام السوداء والأوروبيين وحتى من بعض اليهود

المجنسين في الجامعة نفسها! إني أسأل: إلى متى سنظل نعاني من هذا الميز السافر؟ وسابع، بشعر طويل ولحية كثة: "لذا سأضطر إلى الرحيل إلى إحدى جامعات المتروبول. ربما لن أكون الوحيد. هناك على الأقل لا يظهر التمييز بالدرجة نفسها التي هو عليها هنا. ولكن يجب أن أسأل: لماذا هذا الفارق الاجتماعي؟ ومن يكرسه". وعاشر، بذقن لينين وصلْعته: "يبدو أن صبرنا لن يدوم أكثر مما دام على استفزازات الطلبة العنصريين من الأقدام السوداء والأوربيين والمتواطئين معهم في الإدارة وفي الخدمات الجامعية وبعض الأساتذة أنفسهم من بقايا الفاشلين. لذا أسأل: ما العمل لنرد ومتى؟»[22]

تحاول الذات هنا أن تتساءل عن ذلك التمييز وتلك العنصرية التي كان يقوم بها الأوربيون تجاه الأهالي وأبنائهم المثقفين بالرغم من احتكاكهم ووجودهم معهم في كثير من الأحايين داخل فضاءات مكانية مغلقة، وهذا ما يجعل من الآخر يفرض على الذات تلك العنصرية ويحدث ذلك التصادم، وكذلك فإن الإحساس بالعنصرية جعل الذات هنا في موقف تساؤل، إلى متى سيظل ذلك الميز السافر؟ وإن المعاملة التي تحظى بها الذات الجماعية الـ(نحن) المثقفين، مختلفة عن التي يحظى بها أبناء الأوربيين والأقدام السوداء.

1-3- صورة الذات الجماعية الـ(نحن) الأهالي والآخر (القمعي/المتعالي):

الصورة الثالثة للذات الجماعية هي صورة الأهالي من الجزائريين واليهود وما يتعرضون له من قمع واستغلال وسلب للإرادة من طرف الأوربيين والأقدام السوداء، وهذا ما لمسناه في هذه الشخصيات العنصرية، يقول السارد: «وكنت لا أجد سوى غيظي أبديه لحاييم مما يظهره الأقدام السوداء والأوربيون من ازدراء تجاه الأهالي يبلغ حد الإهانه؛ خاصة من يستخدمونهم في الحمالة وفي التنظيف وكأنهم أقنان! ينهرون طالبي العمل منهم مثل حيوانات جرباء يجب أن تبتعد. ويشتمونهم فقد تذمر أحدهم لنا، أنا وحاييم، (...) معتقدا أننا على الأقل، من الأقدام السوداء. هؤلاء الأنديجان الكسالى! لا يتقنون فعل أي شيء ! قال عاصرا قطرة استهزاء»[23]، حيث يعمل الآخر على استغلال الأنا الجماعية كاستغلاله للعبيد، فتُوكل لهم الأعمال الشاقة والحمالة، ووصلوا بذلك حد الشتم بأبشع الألفاظ، ومن هنا تظهر معاناة الأنا وما تواجهه من قِبلْ هذا الآخر القمعي والعنصري.

وقد كانت الامتيازات التي يحصل عليها أبناء الأوربيين والأقدام السوداء، تظهر مدى سياسة التفرقة التي كان يمارسها الآخر بين الجنسين الأوربي والعربي (الجزائري)، يقول السارد واصفا حال الأهالي في مقابل ما يحظى به غيرهم من الأوربيين «وهم الآن يرون إنسان هذه الأرض، الأنديجان كما ظلوا يعتبرونه، ينهض من رماد الاحتقار التاريخي الذي مرغوه فيه ليواجههم بعد أن ظنوا أنهم دجنوه إلى الأبد.

- أرسلان. أنت تعرف أن غلاة الأوربيين والأقدام السوداء من أحفاد المهاجرين الأسبان والإيطاليين والمالطيين واليهود أيضا المستفيدين من قانون التجنيس ومن الامتيازات التي يحظون بها، مقابل حال الأهالي المزرية البائسة، هم الذين، في الإدارة وفي الاقتصاد والتجارة والزراعة وفي مؤسسات البوليس والجيش والجامعة، كما نرى ذلك منذ شهور، يتصدرون الآن جوقة قرع طبول الحرب التي يريدونها شاملة لا تبقي ولا تذر وهم الذين زرعوا بذور كل هذه الكراهية التي تترجم اليوم إلى مجابهة دامية»[24].

إن الكراهية التي ترجمت فيما بعد إلى صراعات ومجابهات دامية بين الأنا الجماعية الـ(نحن) والآخر (المستعمر) سببها هذا الأخير، الذي قام بفرض قوانين غير عادلة وسلطة سياسية مستبدة في حق الأنا الجماعية الـ(نحن)، وهذا ما جعل العلاقة تتوتر بينهما لتصل حد الصراع، حتى صارت الأنا تشعر بغربتها في حضور هذا الآخر داخل فضائها الجغرافي المنتمية إليه، يقول البطل/أرسلان: «كفاك يا حاييم! أنت تعرف أن صفة المسلمين السياسية يلصقها الاستعماريون بالأهالي مثلها مثل صفة اليهود منهم. ويسمون أنفسهم هم والأقدام السوداء فرنسِيّي الجزائر. "فصاروا هم الجزائريين! وبقينا نحن الأهالي!" قال حاييم ببداهة مخادعة»[25]. وهذه المفارقة العجيبة جعلت من الأنا الجماعية المنتمية فعليا لهذا المكان/الوطن تصبح كيانًا هامشيًا في حضور الآخر/الاستعمار الذي أراد أن يجسد ويقيم مركزيته التي تقتضي بإقصاء الأنا الجماعية/النحن (الأهالي) فتصبح الأنا هنا في الهامش والآخر في المركز.

وإن أكبر موقف تعرض له البطل وهو موقف يدل على ثبات هذه الذات وعدم خنوعها وخضوعها للآخر، حيث يظهر لنا هذا الشاهد تضحيات أرسلان الذي يفكر في والديه اللذان ربما يكونان قد توفيا في خضم تلك الحرب حيث يقول: «فأحسست في جسدي كله كمثل دبيب النمل لِما كان يسكن قلبي في الجبل من فزع خوفا عليهما من تصفية أحدهما أو هما معا في خضم حرب كانت قد ازدادت، في عامها السادس، ضراوة وشدة، مخلفة الموت والخراب والحزن اليومي؛ في المواجهات الدامية كما في التجاوزات من جانب الجيش الفرنسي بحق المدنيين في الأرياف بالتهجير والتقتيل واستعمال الأسلحة المحظورة. ومن جانب **(ج ت و)** في الذبح والتنكيل في صفوفها هي وبحق الأهالي لأي اشتباه أو تقاعس أو وشاية»[26]

فالبطل أرسلان وبالرغم من الظروف التي كان يعيشها في الجبل مع إخوته المجاهدين الذين تركوا كل شيء للالتحاق بالجبل وحمل السلاح في وجه الاستعمار إلا أنه

لم ينساهما وخاف عليهما من أن يقوم الاستعمار بتصفيتهما، وحتى ولو حدث ذلك فإنه لن ينقص من عزيمته وإصراره بدفاعه عن وطنه وأرضه ودينه.

إن الآخر (الاستعمار) المهيمن يحاول دائما أن يفرض سلطته ونفوذه وقوته على الذات الضعيفة ليسلبها إرادتها، حيث تصبح هذه الذات مهمشة، وبالتالي يتشكل لدى وعي كل منهما رؤية خاصة تجاه الآخر، فالأول (الآخر) يرى الذات في موضع ضعف وهوان وينظر لها نظرة احتقار، والذات تنظر له نظرة خوف لأنها شكلت صورة عن هذا الآخر بأنه ذو قوة وسلطة عليها.

الهوامش:

[1]- نجم عبد الله كاظم: نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط:1، 2013م، ص15.

[2]- المرجع نفسه: ص15-16.

[3]- jabra ibrahim jabra: modern arabic literature and the west, journal of arabic literature, leiden, E.J.Brill, vol II,1971,p.77، نقلا عن: نجم عبد الله كاظم: نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، مرجع سابق، ص15.

[4]- إسماعيل أحمد عمايرة: بحوث في الاستشراق واللغة، دار البشير ومؤسسة الرسالة، عمان، د.ط، 1996، ص300.

[5]- نجم عبد الله كاظم: نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، مرجع سابق، ص41.

[6]- عبد الوهاب المسيري: فقه التحيز، ضمن إشكالية التحيز، ج1، الولايات المتحدة الأمريكية، د.ط، 1996، ص51. نقلا عن نجم عبد الله كاظم: نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، مرجع سابق، ص41.

[7]- الحبيب السائح: رواية أنا وحاييم، دار ميم للنشر- الجزائر، ط:1، 2018، ص11.

[8]- الرواية : ص116.

[9]- الرواية: ص118.

[10]- الرواية: ص123.

[11]- الرواية: ص136.

[12]- الرواية: ص207.

[13]- الرواية: ص326.

[14]- الرواية: ص271.

[15]- الرواية: ص144.

[16]- الرواية: ص156.

[17]- الرواية: ص166.

[18]- الرواية: ص181.

[19]- الرواية: ص126.

[20]- الرواية: ص44.

[21]- الرواية: ص44.

[22]- الرواية: ص92.

[23] - الرواية: ص75.

[24]- الرواية: ص132- 133.

[25]- الرواية: ص90.

[26]- الرواية: ص190.